الزهريات الكلاسيكية

للدكتور أحمد موسى

— ٣ —

مما يبعث السرور في النفس وسط ما يحيط بنا في هذه الأيام من مصاعب ومنازعات أن نرجع إلى حكمة جاءت على لسان ماثيو آرنولد الناقد الفني العظيم حيث يقول :

مثل الرجل الذي يميل إلى الفن ثم يبتغي لهذا الفن غذاء في غير مخلفات الإغريق ، وكذلك الذي يميل إلى الشعر من غير أن يستعين في تنمية هذا الميل بهوميروس وأبي العلاء وشكسبير وجوته ، كمثل من يلتمس التهذيب والخلق القويم في غير الكتب السماوية !

وعلى ذلك يقرر آرنولد Mathew Arnold أن من الكتب السماوية ومن هوميروس وأبي العلاء وشكسبير وجوته ، ومن الفن الإغريقي ؛ مجموعة تلك المخلفات القديمة العظيمة الخالدة ، هي التي ستبقى أبداً الباعث القوي والمثال الحي والمعين الذي لا ينضب لأعمال الإنسان !

أكتب هذا بمناسبة خطاب وصلني من (قارىء) يعتب علي الكتابة في فن الإغريق ، في وقت ظهرت فيه القنبلة الذرية — ويقول أنه يرى من الخير معاصرة باحث الفن وناقده ومؤرخه للوقت الذي يعيش فيه ؛ فيكتب في الفن الحديث وفي اتجاهاته ومدارسه .

وهذا قول لا غبار عليه لو أردنا الكتابة لمجرد الترفيه عن القارىء بكتابة ما يلذ له أن يقرأ ، ولكن « مجلة الرسالة » التي كافحت ستة عشر عاماً في خدمة الأدب والعلم والفن الرفيع ولم ينزل صاحبها مرة إلى السوق ليعرف مطالبه ، بل ظل رابضاً كالأسد يرفع من مستوى الناس ولا يهبط هو إليهم ، حتى ولو عاد عليه هذا الهبوط بالرواج العظيم — ليست المجلة التجارية التي تريد اكتساح السوق !

ولما كنت أعتقد أن الخير كل الخير هو تثقيف القارىء تثقيفاً فنياً يعود عليه بإدراك معنى الفن إدراكا سليما فيرى ويسمع ويفرق بين الجيد وغير الجيد ؛ رأيت أن أكتب عن الإغريق غير مهتم بتسلية القارىء والترفيه عنه .

ولا أنكر أن معظم الناس يعتقد في هذه الأيام بعد ظهور الاختراعات الحديثة كالقنبلة الذرية والرادار والتليفزيون والبنسلين أنهم أحسن بكثير من السلف ، وإنه لا داع بعد اليوم للتعلق بأهداب أعمالهم ، وهذا راجع ولا شك إلى ما أحدثته الحرب الأخيرة — وكذلك الحرب التي قبلها — من قلق واضطراب وتعلق بالماديات لم يعهد له مثيل في سابق العصور ، حتى في بلاد الشرق التي لم تدر فيها المعارك الحاسمة !

وأراه مناسباً في هذا المقام أن أبين في كل اقتضاب الأسباب التي من أجلها لا يزال الفن الإغريقي سيد الفنون جميعاً . فنحن معشر المصريين لم يبلغ تقديرنا للفن مبلغ تقديرنا للشعر والأدب والفلسفة ، ذلك لأن لنا في مجال الشعر والأدب والفلسفة إنتاجاً قومياً عرف قدره في الشرق كله وفي معظم البلاد الأوربية ، أما في الفن ، فإن جهودنا ضئيلة تكاد لا تُذكر ، ولعل المقارنة بين الفن المصري القديم وبين ما ننتجه الآن يحقق هذا القول .

ومهما يكن من شيء ؛ فإن المقرر أنه لولا ما للفن الإغريقي من التأثير المتواصل لما ارتفع الفن كثيراً في كل أنحاء الأرض عن مستوى الفن الهندي أو الصيني أو الفارسي .

ففي المائة السنة السابقة على حروب الفرس التي وقعت بين عامي ٥٠٠ ، ٤٨٠ ق . م . كانت بلاد الإغريق بقسميها الأيوني والدوري أشبه شيء بشجرة أنبتت أغصاناً ناضرة انبعثت في نواحيها المتباينة ، وما انبثق فجر القرن التالي لتلك الحروب ، حتى جاء هذا الغرس بأطيب الثمرات ، وأخرج لنا الأغارقة الآيات البينات ، التي ظلت حتى اليوم المثال الذي يحتذى به الإنسان ، والأفق العظيم الذي يمكن للعقل البشري الوصول إليه !

والميزة الكبرى في الفن الإغريقي أنه فن بسيط متوازن في

تناسق ، يحاكي الطبيعة ويستلهمها في طموح مستمر نحو الكمال ، فهو فن إنساني بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان .

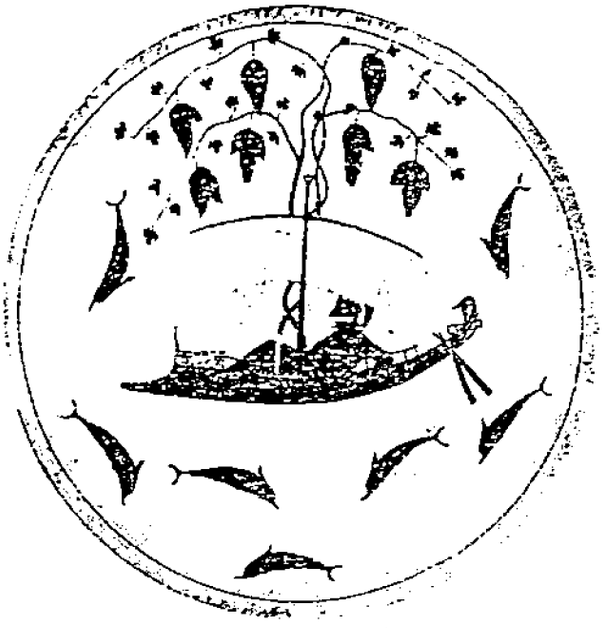

ش١ — ديونيزوس ، إله الخمر في نزهة بحرية يحركه الشراعي تعلوه عناقيد الكرم وتحيط به الأسماك

وإذا كنت قد كتبت على صفحات الرسالة منذ عشر سنوات عن نواح مختلفة في الفن الإغريقي ؛ فإني أكتب اليوم ولا زلت مصراً على ألا أبدأ إلا به .

نعم كان في مصر فن وفي بابل وآشور فن ، وكذلك في كريت ، ولكنه لم يكن إنسانياً بالمعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة ؛ ذلك لأن فناني مصر وبابل وآشور وكريت انصرف اهتمامهم نحو تصوير عبادة الآلهة وتصوير الحروب والحياة البيتية والزراعية ، أما الصور الإنسانية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان كما قلت ، فإنها لم تأت فيما ذكرت إلا رموزاً متواضعاً عليها خالية مما يثير الشعور ، بل إنها كانت خالية مما يبعث في النفس حب الجمال أو ما يسمو بالمشاهد فوق المستوى العادي .

عرف الإغريق آثار الفن الأولى ، ولكنهم أبوا أن يجتذبهم ما اجتذب الفينيقيين والإتروسكانيين الذين اقتصروا على تقليدها والنسج على منوالها . ذلك لأنه قد قامت في نفوس الإغريق عقيدة هي في طبيعتها أقرب إلى الوجدان منها إلى العقل وهي استحداث فن إنساني كامل !!

وللبيئة الطبيعية والاجتماعية آثار ظاهرة في نهضة الإغريق ، وسواحلهم الممتدة وكذلك مرافئهم ونهضتهم التجارية ، كل هذا مما زاد في جدهم لا سيما في منطقة الشواطىء الشرقية حيث كانت فينيقية ومصر وغيرها من الشعوب الشرقية ذات المدنية راقية بالقرب منهم .

وهكذا كانت طبيعة البلاد وأحوال الاجتماع مما مهد السبيل إلى إيقاظ الفكر الإغريقي الناشيء في أرض أوربية ذات جو (شرقي) معتدل .

هذا بيان لم يكن منه بد — وفي اعتقادي أن مرسل الخطاب لم يستمع بالراديو إلى حديث حضرة الأستاذ الكبير شفيق غربال بك في معرض الكلام عن الكتب الأوربية الحديثة ، فلو أنه استمع إليه عندما أشاد بذكر الإغريق والعقلية الإغريقية وفضلها الدائم على العمل البشري لما وجه إليّ خطابه .

والآن أقول إن مصانع الفخار في أثينا انتهت فجأة عقب الحروب الفارسية التي ألهبت العقل الإغريقي وأيقظت أحاسيسه الدفينة ، مما عاد على الفن الإغريقي بالخير العميم !

وإذن لم يكن غلق مصانع الفخار في أثينا نتيجة لاستحالة تصدير الشكاوات إلى وسط إيطاليا Etruria — Tuskana كما يتبادر إلى الذهن ، بل نتيجة لاتجاه الصور إلى الساحات الفسيحة على الحيطان بدل الساحات المحدودة على الزهريات ، فعلى حيطان المعابد الأثينية وردهات المباني العامة صورت المناظر العظيمة [سيكون للتصوير الإغريقي بحث خاص] وأخذ

ش ٢ — فتاة تسند رأس صديقها وقد عاد إليها تملا !

موضوع الإنشاء الفني يظهر كاملا في الأفق ، والانسجام بين أجزاء القصة الواحدة متوافراً .

ولـكن هـذا — مع الاعتراف بأثره الانقلابي العظيم — لم يكن ليقضي قضاء مبرماً على فن المشكاوات ، ولـكنه قضى على مبدأ تسجيل أسمـاء الفنانين عليها كما لو كان الفنان يترفع عن كتابة اسمه على مساحة بسيطة محدودة بالقياس إلى الصور الحائطية الهائلة .

والذي يهمنا على وجه التخصيص أنه قد نشأ عن انتشـار التصوير الحائطي الافتصار في صور المشكاوات على المناظر العاطفية الحيّـة ، فنرى ما يسجل الوداع بين حبيبين أو لقاء بين عاشقين أو ممرضة تضمد جراح محارب تحنو عليه ، وغير هـذه وما يمت إليها بصلة ، هذا إلى جانب تصوير الورود والأزاهير والفاكهة .

أما إذا سجل الفنان مناظر قصصية فإنه يقتطف أحد مواقفها ويكتفي به للتسجيل ، فظهرت الصورات بسيطة الموضوع ظاهرة الغاية على نقيض المراحل الأولى ، وطبيعي أنه كلما كانت الفكرة محدودة وكان المعنى ظاهراً ؛ كلما أمكن الحكم على مقدرة الفنان وتقدير مدى نجاحه ، لأن المساحة وإن تكن محدودة إلا أنهـا تسمح عندئذ بإظهار قوة الفنان من خلال رقة الخطوط التحديدية وقوة تعبيرها فضلا عن بيان الأجـسام في مرتبة من الاتقان تفصح عن رشاقتها وقوة تأثيرها على المشاهد المتأمل .

واستخدم في هذه المرحلة لون الذهب واللون الأزرق والأبيض ، وخصصت لأجزاء معينة من صور الجسم الإنسـاني على الزهريات الصغيرة التي كانت تستعمل في تجميل الحجرات .

ولم يبق من نماذج المشكاوات الملونة شيئاً حفظ مستواه الفني

ش ٣ — الصديقتان

حتى القرن الرابع ق . م إلا النوع المسمى Lekythen وهي التي كانت توضع في الجبانات وإلى جانب المقابر .

ومنذ منتصف القرن الرابع وبعده بقليل أخذت زهريات أتيكا تختفي ، وحلّت محلها مشكاوات جلبتها أثينا بغية تصديرها

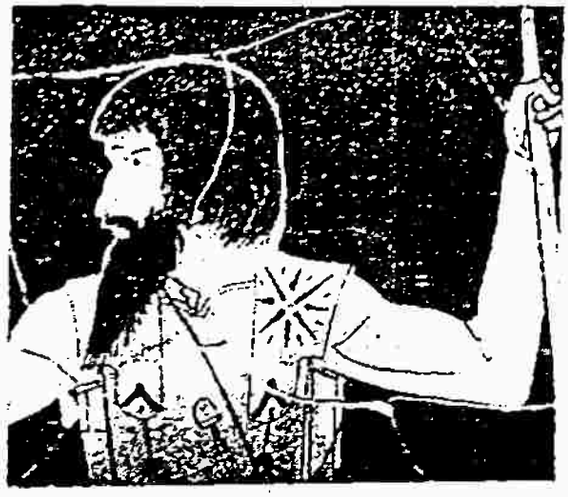

ش ٤ — المحارب العائد وقد طالت لحيته وتعضنت وجناه

إلى الخارج لا سيما إلى الجزء الجنوبي الغربي من روسيا ، وأهم المدن مثل باستوم وأبوليا وكانوزا وكابو Paestum ، Apulia Canosa ، Capua . وقد تشـابه الإنتاج الفني للزهريات التي عملت بهـذه المدن مع نظائره التي عملت في أتيكا — ولـكن هناك فوارق فنية جديرة بالتنويه ، إلا وهي خشونة الطين المعمولة منه ، وظهور الصورات ضعيفة الخطوط مع الإكثار من الزخرفة لتغطية الضعف ، مثلها في ذلك مثل الفني الذي يلتزم الاختفاء بصوته وسط الدربكة الموسيقية ! وظهرت الزخارف الخطية والخيالية التي تذكرنا بالمشـكاوات المبكرة ، على حين ظلت الاتيكية على جانب كبير من الذوق الفني ، ولعل زهريات أبوليا كانت أبدع ما نذكره ، فمن بينهـا ما لا يزال مشهوراً بجماله وحسن تكوينه وطول عنقه في انثناء كعنق البجع .

ومهما يكن من شيء فإنه لم ينته القرن الثالث الميلادي إلا وكانت الآثار الباقية من هـذا الفن ضئيلة ، وحلت محلها الزهريات المدنية ، وعليها رسـومات بارزة Relief ذات بريق ولمعان ، انتقلت إلى بلاد الرومان وظلت فيها حتى انهيار دولتهم .

وتباهي روما وناپولي وفلورنسا مدائن باريس ولندن وبرلين وميونيخ وكارلزروه وفينا وكوپنهاجن وبطرسبرج بمجموعتها الفريدة التي تكوّن سلسلة متصلة الحلقات لمن يريد مواصلة الدرس

أحمد موسى